بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

* ما الدور الذى اختار الله أبا بكر لأدائه . . ؟
* أبوبكر ، وعمر – أىّ طراز من الحكام كانا . . ؟

كان مفروضاً أن يكون عنوان هذا الكتاب ، وموضوعه أيضاً ، « بين يدى أبى بكر » بعد أن فتح الله بكلمات سالفة ، ظهرت فى كتاب « بين يدَى عمر » .

بيْدَ أنى لم أكد أتهيَّأ للكتابة ، وأمضى فيها بضع صفحات حتى تغيرت المشاهد التى كنت أعيش فى بهَرها وسَناها وملأ الأفقَ أمامى مشهدٌ واحد فريد ومجيد ، فنحَّيْتُ الأوراق جانباً ، ورُحت أتملَّى المشهد وأتأمَّلهُ .

لقد بدأ المشهد هكذا . .

الله الرحمن الرحيم ، يريد أن يبعث للناس على فَتْرَة من الرسُل رسولا يردُّ الدين إلى جوهره وحقيقته ، ويُخرج الحياة الإنسانية من الظلمات إلى النور ، ومن التِّيه إلى الرُّشْد . .

ولقد اختار الله رسوله ، وهو محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام

ونزَل الوحى . . وبدأتْ رحلةُ القرآن مَسيرتَها المباركة .

هذا هو الموكب الجليل الذى وُكِلَتْ إليه مُهمة تغيير البشرية ، وتجديد ضميرها . . ! !

محمد . . والوحْى . . والقرآن . .

ولكن ، بدَا لى كأنما الموكب واقف يترقَّب . .

إنه ينتظر رجلاً له فى الموكب مكان شاغر ، لن يتحرك الموكب حتى يجىء . .

وهذا الرجل ليس نبيًّا . . ومع هذا فهو الذى سيُتِمُّ دَوْرَ النبى . .

وفجأة . .

غرَّدت العصافير . .

وأهلَّت البُشرى . .

وأقبل الرجل . .

وجاء أبو بكر . . ! ! !

جاء الإنسان الذى سيقول للنبى دائماً ، وفى غير تَلَعْثُم أو تردُّد :

– صدَقْت . . صدَقْت . .

جاء الرجل الذى سيزامل النبى فى هجرته ؛ وهو يعلم علم اليقين أن قريشاً ستُجند لمطاردة النبى المُهاجر كل بأسها ، وحِقدها ، وكيْدها . .

جاء الرجل الذى سيرد المسلمين – جميع المسلمين – إلى صوابهم يوم ينْعَى الناعى إليهم رسولهم . .

جاء الرجل الذى سيُشكِّل موقفه « يوم السَّقيفة » عُمْراً جديداً يُكتب للإسلام ، ولوَحْدة المسلمين . .

جاء الرجل الذى لولاه أيام الرِّدة لَواجَهَ الإسلام مِحْنَةَ فنائه واختفائه . .

وبعبارة واحدة :

جاء الرجل الذى كان لا بد أن يجىء ليكُون مع الرسول ، الأداةَ التى اصطفاها الله لِيُغيِّر بها العالَم ، ويُطهِّر الدنيا ، ويُقوِّم الحياة . .

هــذا هو الدوْر الحقيقى لأبى بكر كما تراءى لى .

وهذه الصفحات ، محاولة متواضعة . لتصوير هذا الدور الفريد ، والمجيد . .

إن « أستاذ » البشرية فى « فَنّ » الإيمان . سيُرِينا من خلال حياته وثَباتِه كل عجيب وعظيم فى فن الإيمان . . ! ! !

* * *

وبعد . .

فأى طراز من الحكام كان أبو بكر ، وكان عمر . . ؟ ؟

إنى أريد فى هذه المقدمة أن أجيب عن سؤال واجهَنى فى إلحاح إثر صدور كتابى : « بين يدى عمر » . .

لقد أرسل إلىَّ بعض القراء الكرام يسألوننى قائلين :

– كيف تُوفِّق بين إيمانك الأكيد بالديمقراطية ، وإيمانك الأكيد بحاكم مثل « عمر بن الخطاب » الذى لا نستطيع برغم عَدله المُطلَق أن نقتنع بأنه كان صاحب حكم ديمقراطى . . ؟ ؟

وإذا أثير هذا السؤال عن عمر ، فإنه لا بد سيثار عن أبى بكر ؛ فالخليفتان فى حكمهما كانا من طراز واحد . .

والإجابة عن هذا السؤال ، وتفنيد تلك الشُّبْهة ، مِن البدَاهَة بحيث لا يحتاجان إلى إفاضة أو إسْهاب .

وعندى أن الذين يَرَوْن فى « أبى بكر وعمر » مُسْتَبِدَّيْن عادِلَيْن » إنما يجانبون الصواب .

أولاً : لأن أبا بكر وعمر لم يكونا مستبدين لحظةً من نَهار .

وثانياً : لأنه ليس فى طول الدنيا ولا عَرْضها ، شىء اسمه « مستبد عادل » . .

ولو الْتَقتْ كل أضداد الحياة ومتناقضاتها فسيظل الاستبداد ، والعدل ضِدَيْن لا يجتمعان ، ونَقِيضَيْن لا يلتقيان . . وإن أحدهما ليَختفى فَوْرَ ظهور الآخر ، لأن أبسط مظاهر العدل ومَطالبه أن يأخُذ كلُّ ذى حق حقَّه ، وإذا كان من حق الناس – وهذا مُقرَّرٌ بداهة – أن يشاركوا فى اختيار حياتهم وتقرير مصايرهم ؛ فإن ذلك يقتضى فى اللحظة نفسها ، وللسَّبَب نفسه اختفاء الاستبداد . .

ولقد كان أبو بكر وعمر على بصيرة من هذا . . وعلى الرغم من أنهما والأمة معهما ، كانوا جميعاً خاضعين خضوعاً مطلقاً لما أنزل الله من شريعة . . على الرّغم من هذا ، فقد هيّآ للمسلمين كل فُرص المناقشة والاختيار ، حتى رأينا « مُواطِناً عادِيًّا » يأخذ بتلابيب « عمر » وهو فى أوْج سلطانه ، ويقول له : اتق الله يا عمر . . ! !

وحتى رأينا هذا الخليفة نفسه يجمع المسلمين ويقوم بينهم خطيباً فيقول : « أيها الناس ، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسى هكذا . . ؟

فيجيبه واحد منهم : – إذَن نقول بالسيف هكذا . .

فيسأله أمير المؤمنين : – إياى تَعنى بقولك . . ؟

فيجيبه الرجل فى إصرار : إياك أعنى بقولى . .

فيجيبه عمر : « يرحمك الله . . والحمد لله الذى جعل فيكم مَن يُقَوِّم عِوَجِى » . . ! !

أهذا حاكم يُوصَف بأنه « مستبد عادل » . . ؟ ؟

ومن أين جاءت هذه الشبهة وهذا اللبس للسادة القراء الذين سألونى : كيف أوفق بين إيمانى بالديمقراطية وإيمانى بعمر . ؟

لست أنكر أن لهذه الشبهة منطقَها . . ولكنه مَنطق شكَّلَ نفسه فى غِياب كثير من أجزاء الحقيقة ونُورها . .

فلقد يبدو لنا أن « أبا بكر وعمر » ، لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لأنه لم يكن إلى جوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة – البرلمان والدستور : والمعارضة المنظمة ، والصحافة الحرة ...

ووَضْع المسألة على هذا النحو ، يُشكل خطأً كبيراً .

وإنما يستقيم الفهم فى أيدينا إذا نحن أجبْنا عن هذا السؤال :

– هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية عن مجتمع المسلمين يومئذ راجعاً إلى كُفْران الخليفتين العظيمين بهذه المؤسسات . . ؟ ؟

والجواب الذى تمليه طبيعة حكمهما وسلوكهما فى الحكم هو : لا . .

وإن غِياب هذه المؤسسات لا يعنى أكثر من أنه تعبير عن العصر وعن البيئة ، وعن الحياة فى جزيرة العرب منذ ألف وأربعمائة عام .

ولستُ أرى فارقاً بين من يسأل مثلا :

– لماذا لم يكن فى عهد أبى بكر وعمر صحافة حرة . .

ومَن يَسأل :

– لماذا لم يكن لأبى بكر وعمر سفارة فى لَندن . . ؟ ؟ ! !

إن المرحلة التاريخية التى كانت يومئذ ، هى التى تجيب بَدَاهـــةً عن هذين السؤالين . .

على أن أبا بكر وعمر ، حين لم تسعفهما طبيعة الزمان والمكان فى أيامهما

بهذه الأشكال المنظمة للديمقراطية ، إنما حقَّقَا على أوسع مَدًى ، الجوهَر الحيّ للديمقراطية من خلال الأشكال والتنظيمات التى تُلائم تطورَهم فى ذلك العهد البعيد .

فإذا كان تطور مجتمعهم يومذاك ، لم يُهيئ قيام معارضة لها كيان منظم مَهيب ، فإن المعارضة نفسها كانت تُمارَس بأسلوب فعّال ، وعَميم . .

وإذا كان التطور يومذاك ، لم يُهيئ لهم قيام « برلمان » يراقب الحكومة ويضع القوانين ؛ فإن الشُّورَى يومئذ كانت شَعيرة من شعائر الله ، وكانت حقًّا مقدساً للجماعة كلها . .

وإذا كان التطور يومذاك ، لم يهيئ لهم قيام صحافة حرَّة ، فإن الكلمة المخلصة الشجاعة كانت على كلِ لِسَان يُصغى الخليفة إليها ، ويُثيبُ عليها . .

ولو « أن أبا بكر وعمر » ، يحكمان فى عصرنا هذا ، لأعطَيَا التجربة الإنسانية فى التنظيم الديمقراطى الرشيد كل احترامهما ، ولَانتفَعا بها إلى أبعد مدًى ، ولأَخذا من أشكالها الحديثة كل ما يُحقق جوهَرها ويُعبِّر عن خَصائصها . .

ولست أريد أن أتجنَّى على الحق ، فأقول : إن ذلك كان سيتمُّ بصورة مطلقة .

لا . . وإنما كان سيتمُّ دَاخل إيمانهما المطلق بالدين الذى آمنوا به . . ووَفْق الطريقة التى تَشكَّلَ بها هذا الإيمان . .

ولكن ، حتى مع وجود هذا التحفُّظ ، فإن ذلك لا يَنقُص شيئاً من حقيقة أنهما حاكمان ديمقراطيان .

ذلك أن أى حاكم ديمقراطى ، إنما يعمل داخل حدود الدستور القائم

فى دولتــه . . وأبو بكر وعمر ، كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم فى مجتمعهما . .

لقد كان للقرآن فى مجتمعهم ، مِثْلَ ما للدستور فى أية أمة ودولة بل إن ولاءهم للقرآن كان يفوق ولاء أية أمة لدستورها . . ! !

ولقد تضمَّن القرآن الكريم مزيتين من أعظم مزايا الديمقراطية – أولاهما – أنه جعل الشورى واجباً حتى على النبى الذى يُوحَى إليه ، فقال « وشَاوِرْهم فى الأمر » . . وقرَنَهَا بالصلاة حين نعَتَ المؤمنين بأنهم الذين : – « أقاموا الصلاة ، وأمْرُهم شُورَى بينهم » .

– ثانيتهما – أنه لم يُلزم بطاعة أحكامه واعْتناق مبادئه إلا مَن يُقِرُّه ، ويَختاره ، ويؤمن به – أى بلغة عصرنا الحديث – مَن يَقْترع عليه بالموافقة – أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به ، فلهم أن يعيشوا وَفْق عقائدهم ، وتقاليدهم ، والأسلوب الذين يختارونه لحياتهم . . ! ! !

صحيح أنه دستور لم يضعه الشعب . . ولكنه دستور رضيه الشعب وآمن به ، واستشهد فى سبيله . .

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول وساروا معه ، آمنوا بأن القرآن وحىٌ من عند الله ، وعليهم طاعته . .

ولقد حمل أبو بكر بعد الرسول مسئولية القيادة فى المجتمع وَفْق هذا الإيمان . .

ثم حمل عمر المسئولية بعد أبى بكر وَفْق هذا الإيمان أيضاً . .

وهكذا ، فإن المعيار الصحيح الذى يُوزن به حكمهما ، هو مَدَى احترامهما لهذا « الكِتاب » الذى آمن به الناس وارتضوه قانوناً لحياتهم .

* * *

وفى عصورنا الحديثة هذه ، لا تستقيم الحياة إلا بأن تكون للأمم دساتير تَحكُم حياتها . .

دساتير تصوغها الأمة من عقائدها ، وتقاليدها ، واحتياجاتها ، وتُسايربها موكب التقدم الإنسانى المتجدد دوماً . . والذى لا يقف ولا يتقهقر

وتستطيع الأمة – أىُّ أمَّة – أن تُضَمِّن دستورها كل ما أراده الله للناس من خير وصلاح ، وكل ما دعا إليه الدين من تقوى وحق.

وفى رأيى ، لو أن « أبا بكر وعمر » ، يحكُمان الناس اليوم وفْق دُستور رشيد وضعه الناس أنفسُهم لأنفُسِهم ، ما نقَص ولاؤهم لهذا الدستور مِثقال ذرَّة ، عن ولائهم للقرآن الكريم الذى كانا يَحكمان وَفْق هُداه . .

ذلك ، أنهما من الطراز البشرى الرفيع الذى يَشِيعُ فى جوهره إلى جانبِ الإيمانِ بالله ، الإيمانُ بالإنسان . .

خالد محمد خالد